المبحث الثاني

دلالة وحدة النسق القرآني

يُعدّ النسق القرآني لون من ألوان التشكيل اللغوي الحالي (المقامي والمقالي) والحسي مرتبطة معاً، فقد يمثل طريقة موحدة في التعبير عن جميع الأغراض، والتي قامت على قاعدة من التناسق العجيب والأسلوب المترابط والفعّال، يختلف عن جميع الأنساق والأساليب البشرية في اختياره وتوظيفه[1]، ودلالة ذلك أنه من أسلم قديماً وحديثاً وحتى من يقرأ القرآن بإمعان يحصل له انفعال إيجابي وجداني وعقلاني يجزيه نحو تلك التعبيرات والمعاني بطريقة مذهلة، تجمع بين الخشوع والانكسار والخوف والرقة والعاطفة، والفرح والحزن والبكاء، والانفعالات جميعها تعترض للإنسان كأنها جاذبية عجيبة بحسب مراد الآية والتصوير الفني الرائع فيها، والهدف المراد منها، فنوع الانفعال بحسب غرض ومراد الآية واستشعارها.

وتبدو أهمية النسق القرآني في اختيار المفردة من مخزون اللغة العربية وتنظيم هذا الاختيار وترتيبه وتنظيمه وترابطه بحيث يتلاءم مع السياق بأنواعه جميعها الداخلية (اللغوية والصوتية) والخارجية (الحالية والثقافية) المحيطة بالآية أو الآيات والنص كله الذي يجري فيه الكلام[2].

فمن خصائص القرآن الكريم أنه لم يفرد كل سورة من سوره لموضوع معيّن[*] بل كان في السورة الواحدة مواضيع متنوعة وقصص مختلفة وأغراضاً

---

(١) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ١٧.

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ١٧.

(*) استثناءً من ذلك قصار السور فإنّ أكثرها يتناول موضوعاً واحداً.

كثيرة من عقائد وأحكام ومواعظ وإرشاد وعِبر وأمثال وحِكَم، وينتقل بينها من غير فصل.

فالتالي أو القارئ لأيِّ سورة من القرآن الكريم من مطلعها إلى ختامها لا يشعر باضطراب وخلل أو نشاز، ولا يرى انقطاعاً أو انفصالاً محيّر، بل يخلص من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعيّاً هادئاً لا عسر فيه، وتنضوي هذه الخصيصة في تمازج وتلاحم المعاني والأغراض في سور القرآن الكريم أحكاماً وحكماً وأموراً عدة، من أظهرها أنه يكون سبباً لطرد سآمة القارئ والسامع، وتجديد نشاطهما، مما يجعل الإنسان لا يملُّ من ترداد القرآن الكريم وسماعه[1].

ومن الدلالة على نسق آيات القرآن الكريم وسوره وكونها محكمة التبيان مترابطة ومتناسقة الأركان، هي:

١- إنّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة على مر الزمان؛ وهو ليس كلام أحد من البشر، وإنما كلام الحكيم العلام، الذي له الكمال المطلق وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، فلا يوجد في كتابه الكريم النقص والزلل، ولا اختلاف وتنافر بين آياته لفظاً ومعنى، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2][3].

فكمال حكمته تعالى وسعة علمه سبحانه تقتضي إحكام كتابه لغةً وإيقاعاً على أبدع نظام[4]، فقال تعالى لكمال كتابه بكمال حكمته وعلمه:

---

(١) وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤١.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٤٢.

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[1].

وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم في آيات عدة منها قوله تعالى في إحكام كتابه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2].

وقوله تعالى في تنزيه القرآن الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3]، وقوله في بيانه وظهوره وعربيّته: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[5]، لمكانته وعظيم حكمه وإحكامه.

وذكر تعالى في تمام أحكامه: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾[6]، فلم يكتفِ ﷻ في وصف الآيات فقط، بل وصف السور بالإحكام ووصف القرآن كله بالكمال وبالغ الحكمة، وأنزله متقطعاً، ليثبِّت به فؤاد النبي ﷺ وتتلقاه الأنفس في أول نزوله بالقبول.

وهذه الآيات وغيرها دليل على عظمته وعلو مصدره، وتنبيهاً لقيمه المكنونة والمضمونة وغرضه وبلاغته وإعجازه، ولم يجاريه كتاب قديماً وحديثاً

---

(١) سورة النمل: ٦.

(٢) سورة يس: ١-٢.

(٣) سورة البقرة: ٢.

(٤) سورة يوسف: ١-٢.

(٥) سورة الدخان: ١-٣.

(٦) سورة محمد: ٢٠.

على وجه الأرض ولو اجتمعوا على ذلك فصحاء وبلغاء العالم.

٢- أطلق الله تعالى على مجموعة الآيات القرآنية سواء أكانت قليلة أم كثيرة بالسورة، فقد قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١]. وإطلاق هذا الاسم يحمل معنى الإحاطة والسوار، لأنها كالسور الذي يحيط بالأبنية أو البستان، والسوار الذي يحيط بمعصم اليد، ولكل منهما معنى خاص، فالسور من الوحدة والاستقلال والعزل عن الغير، والسوار زينة وجمال، أما السورة فتجمع المعنيان وأكثر، فهي تحيط بطائفة من الآيات ذات المعاني المتنوعة التي يجمعها هدف وغاية معيّنة مرتبطة برباط وثيق، ومطلع السورة وختامها بمنزلة الحدود والسور الذي يحف بآياتها ويجعلها مستقلة تميزها عن غيرها من السور الأخرى[٢]، أما ما تضمّه وتحويه السورة بين طياتها من مواضيع متكاملة متراصة كنظام متكامل متساوٍ في الجودة، بليغ المعنى غزير الألفاظ، حسن النطق، ذو صوت جرس مؤثر، وإيقاع متناسق، يجمع فيه كل ما يحتاجه الإنسان من نظام حياة الأحكام التي تنظّم سلوك الفرد والمجتمع، وفيه النصح والإرشاد، وفيه الزجر والعِظة، وفيه الإنذار والتخويف، وفيه الترغيب والترهيب.

ونقسم القرآن إلى سور مختلفة منها الطويلة ومنها المتوسطة ومنها القصيرة أحد مظاهر تيسير القرآن وتسهيله للذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣]، فضلاً عن جمالية الترتيب وتناسق النظام

---

(١) سورة النور: ١

(٢) ينظر: وحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٣) سورة القمر: ١٧.

العام للسور والسورة الواحدة.

فالسورة الواحدة من القرآن الكريم كافية للتذكير لمن أراد أن يتذكر ويتعظ ويعي، لتنوع موضوعاتها وتناولها مجالات وجوانب عديدة[1].

٣- وقوع التحدي بالسورة الواحدة من سور القرآن الكريم، فتحدى القرآن الكريم الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[2]، فلما ثبت لهم عجزهم عن الإتيان بمثله ناكصين رؤوسهم، طلب الله تعالى منهم الإتيان بسورة واحدة إن استطاعوا، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4] فهذا يدل على عجزهم عن الإتيان ولو بسورة واحدة وإن دعوا شركائهم ومعاونيهم ومن في الأرض جميعاً.

وهذا دليل على أنّ بناء السورة الواحدة وتأليف وتآلف آياتها على هذا النحو المتناسق العجيب أمر معجز للأولين والآخرين، فالسورة الواحدة متأزرة المعاني متّسقة المباني، منتظمة في ترتيبها وبنائها مع تنوع مضامينها، فنسق السورة يتحرك في هذا الفضاء الواسع من مبنى ومعنى، ونظام لغة ونظام

---

(١) ينظر: وحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٢) سورة هود: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٤) سورة يونس: ٣٨.

بناء، وتحول الآيات داخل السورة من غرض إلى آخر لتصب في معنى كلّي، وهنا وقوع التحدي والإعجاز، مع قدرتهم على صرف البلاغات وتعرفهم في أجناس الفصاحات[1].

وإنّ نزول القرآن مفرقاً يوجب التحدي، وبمجموعه من دون خلاف في مضمونه واختلافه أكبر تحدي وأعظم إعجاز، وترتيل القرآن الكريم كما أمر الله جلَّ وعلا فيه إمعان وتأمّل في سماعه وقراءته، وهذا إعجاز آخر؛ لأنه لا يسرد كسرد كلام البشر[2].

٤- إنّ ترتيب الآيات في سور القرآن الكريم أمر توقيفي من عند رسول الله ﷺ مأخوذ من الوحي، خلال بعثة النبي الأكرم ﷺ لم تنزل السورة الواحدة بكامل آياتها كما نراها لأنها مجتمعة، ولا متوالية نزول آياتها في أوقات متقاربة، بل تنزل متفرقة على حسب الداعي لذلك[3]، ومثال ذلك سورة العلق، فإنّ مطلع سورة العلق من قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[4] في بدء الوحي، ونزل آخرها في وقت آخر بعد نزول آيات من سور المدثر وتتابع نزول الوحي عليه[5].

فإذا نزلت الآيات على النبي ﷺ يُخبر كَتَبَة الوحي أنْ يضعوها في مكانها

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن، للباقلاني: ٢٧-٣٠؛ ووحدة النسق في السور القرآنية: ١٤٥.

(٢) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٣٦/٥.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٧.

(٤) سورة العلق: ١-٥.

(٥) ينظر: تفسير الجلالين: ٨٠٥، ٨٢٨.

في السورة التي يحددها لهم، كأنّ هذا التعيين في موضع لآية أو الآيات بوحي من الله تعالى، تلائم الآيات الأخرى في السورة وتتصل بها بروابط معنوية معينة[1].

فإنّ فواتح السور وخواتيمها مرتبطة معاً بمعانٍ ودلالات وصيغ ملفتة للنظر، كأنها نزلت متوالية ومتتابعة، وهذا من عظمة مصدر نزولها.

٥- الجمع بين الآيات المكية والمدنية في السورة الواحدة، نزل من القرآن الكريم على صدر النبي ﷺ قبل الهجرة النبوية، ومنه ما نزل بعدها، فالراجح من قول العلماء أنّ الأول يطلق عليه المكي من القرآن الكريم تغليباً، والثاني يطلق عليه المدني؛ لكون معظمه نزل بالمدينة، تميزه عن الآخر من حيث المخاطبة وإلقاء الشرائع[2].

ولكن هناك أمراً مهماً هو أنّ في بناء السورة القرآنية الواحدة نجد منها قد امتزجت فيها آيات مكية وآيات مدنية في سياق واحد، لأن وضع تلك الآيات في أماكنها أمر توقيفيٌّ كما أسلفنا ذلك، ومع ذلك نجدها في غاية الالتئام والانسجام وكمال البناء في كل مجالاته، بحيث نحسب أنّ السورة نزلت كلها في مكان واحد، فلا ندري أهي مكية أم مدنية إلاّ من كتب التفسير التي تذكر السورة مكية أم مدنية، وتستثني بعض من آياتها أنها مدنية النزول أو العكس، وتورد كتب التفسير اختلافاً في كونها من هذا القسم أو ذاك[3].

وهناك تباين بين ترتيب آي السور وبين ترتيب النزول، فزمان النزول

---

(١) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٤٧.

(٢) ينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٥٨٦؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٥٢.

(٣) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٥٣.

إنما كان المقصود منه على مقتضى سُنّة التدرج في تنزيل الشرائع، ومراعاة حال المخاطبين في تربيتهم على مبادئها وتكاليفها، تماشياً وحال النفس البشرية وكيفية تقبّلها للأوامر الربانية، لعلم الخالق بشأن خلقه، أمّا حكمة وضع الآيات في المدنية في سورة مكية، أو وضع الآيات المكية في سورة مدنية فهذا أمر توقيفي يخدم مقصود السورة ويتلاءم معها ويلتئم المعنى والأسلوب الذي تدور عليه سائر آياتها، فهذا غاية الروعة وبراعة الإعجاز[1].

ومن أمثلة السور المكية التي ذكرت فيها آيات مدنية سورة العنكبوت فقد استفتحت بآيات مدنية أورد ذلك القرطبي في تفسيره راجعاً إلى قول ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مكية إلاّ عشر آيات من أولها[2].

والسورة المكية التي جاء في أثنائها آيات مدنية سورة الأنعام، فقد قال ابن عباس وقتادة فيها: هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلت بالمدينة[3]، وهما قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾[5].

والسور المكية التي اختتمت بآيات مدنية سورة النحل، فقد قال فيها عطاء بن يسار: مكية إلاّ ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد حين قتل حمزة ﷺ ومُثِّل به[6]، وكذلك سورة الشعراء فإنها اختتمت بآيات مدنية،

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٣.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٣٢٣/١٣.

(٣) سورة الأنعام: ٩١.

(٤) سورة الأنعام: ١٤١.

(٥) ينظر: زاد المسير: ٣/٣.

(٦) ينظر: تفسير ابن كثير: ٥٢٧/٤.

على قول ابن عباس وقتادة: مكية إلاّ أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[1] إلى آخر السورة[2].

ومن السور المدنية التي ورد في أثنائها آيات مكية، سورة الرعد فهي مدنية إلاّ آيتين نزلتا بمكة وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[3] إلى آخرها[4].

والسورة المدنية اختتمت بآيات مكية النزول سورة المطففين، فهي على قول ابن عباس وقتادة: مدنية إلاّ ثمان آيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[5]، إلى آخر السورة[6].

هذه السور القرآنية من الدلائل والشواهد على عظمة مصدرها وكماله وكمال تآليف الآيات وتمازجها تعبيراً وأسلوباً ومعنى، وتكامل مضامينها واتساقها، واتصال بعضها ببعض لغةً ومعنى وتركيباً ونظاماً. وهو من الإعجاز اللغوي والبياني لهذا النص المقدس.

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٤.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ٨٧/١٣.

(٣) سورة الرعد: ٣١.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٧٨/٩.

(٥) سورة المطففين: ٢٩.

(٦) ينظر: تفسير القرطبي: ٢٥٠/١٩.